

بعض المنشئات الاجتماعية المصّرية

في العصور الوسطى

لحضرة الأستاذ أحمد محمد عيسى

أمين مكتبة جامعة فؤاد الأول

حُبِّبَ إِلَى - فيمن أحببتهم من المؤرخين - المقرئ مؤرخ مصر في العصور الوسطى، وحب إلى، بصفة خاصة، كتابه "فهو كتاب حفظ لنا من أخبار مصر والقاهرة، مالم نظفربه من كتاب آخر، وكانت ملاحظات المقرئ من الدقة والبرعة، بحيث جعلت مؤلفه هذا كنزاً فياض المعين لكل باحث في التاريخ المصري في تلك الفترة. ويبدو لي أن المقرئ لم يترك شاردة ولا واردة من حياة العامة والخاصة إلا انتبه لها، ولا حفظ عليها ودونها في كتابه. والمقرئ مؤرخ قوى الملاحظة، واسع المعرفة، متأمل أكثر منه راوية، أكسبته وظائف الدولة ورحلاته للشام والحجاز، أنواعاً من الدراية، جعلت لكتاباته أهمية كبيرة. على أنه وهو خارج مصر ظل يذكرها، ويحبها، ويحب القاهرة، التي ولد بها، فشغل نفسه بالكتابة عنها وبدأ فيما كتب أنه قاهرى قح.

وفى اعتقادي أن المقرئ، فيما كتب من ملاحظات على أحوال الناس بمصر، لا يبعد كثيراً عما كان يلاحظه على أحوال الناس في الشرق الإسلامى عامة، لأن حياة الناس في تلك العصور تكاد تكون متشابهة سواء في القاهرة أم في دمشق أم في بغداد، أم في غيرها من العواصم الإسلامية الكبرى، وذلك لأنه لم تكن بين تلك البلاد حواجز، ولأن تحركات الجيوش، وهجرات العلماء، واستقدام الفنانين والصناع، جعل العالم الإسلامى وحدة متشابهة في نظمها، ووسائل معيشتها. وأنا حين أقرر ذلك لا أستطيع أن أنكر الأثر الخطير للبيئة والعنصر القوى في ذلك التشابه.